دروس في التبعية . .

في شهر أيلول–سبتمبر الماضي سقط حاكمان ، أحدهما (جان بيديل بوكاسا) في أفريقيا الوسطى ، والثاني (نور الدين طراقي) في أفغانستان .. كان الأول تابعاً لفرنسا ، وأسقطته فرنسا .. وكان الثاني تابعاً للاتحاد السوفييتي وأسقطه الاتحاد السوفييتي

وكان يبدو أن الأول (مستقر) في حكمه ، ولو على جماجم الضحايا ، ببقائه نحو 14 سنة في الحكـــم ، وكـــان الثاني متزعزع الحكم تحت ضربات الثورة ، و لم يمضِ على وجوده فيه سوى 17 شهرا ..

وعجيبٌ أمر الحكام الأتباع للغرب أو الشرق ، على كراسي الحكم المستقرّة ظاهريـــاً أو المتزعزعـــة بـــصورةٍ واضحة .. أنّهم لا يعتبرون بتلك الدروس ، مع أنّها دروسٌ من أحداث الواقع المعاصرة ، وليست من التاريخ البعيـــد إن كانوا لا يردعهم تاريخ ، ولا هي من إنتاج الفكر النظري ، إن كانوا لا يقنعهم منطقٌ ولا فكر ..

يعتقد بعض الحكام الأتباع للغرب أو للشرق في أنفسهم القدرة على البقاء في الحكم لاعتمادهم علـــى جهـــاز مخابراتٍ سرّية ، قائمٍ بنفسه ، أو بتعاونه مع مخابرات الدولة المتبوعة .. ألا يرون أن حكم المخابرات لم يكفِ لنجـــاة (بوكاسا) ولا (طراقي) ، كما لم يكفِ من قبل لنجاة (سوموزا) ولا شاه إيران ؟ ..

أو أنهم يعتقدون في أنفسهم القدرة على البقاء في الحكم لاعتمادهم على القوة العسكرية ، طوّروهـــا بأحـــدث الأسلحة ، واشتروا ولاء كبار قادتها بالامتيازات الظالمة ، وضمنوا –في حسبانهم– عدم ثورتهـــا بحمـــلات الـــتطهير والتسريحات المتوالية ، أو بجعلها أكثر من قسمٍ بمسمّياتٍ مختلفة ، مع جعل التنافس أو التناحر بينها سبيلاً لمنع أيٍّ منها من السيطرة ، وربما شغلوها من وقت لآخر بالمعارك الجانبية ، أو بأعمال البطش بالمعارضين ، مع إشباعها بـ (التوعية العقائدية) ليسيطر عليها فكر الشرق الملحد أو فكر الغرب المنحلّ .. ثم ماذا ؟ .. ألا يرون أن كـــل الاحتياطـــات العسكرية المشابهة لم تغنِ شيئاً عن تلك السلسلة من الحكام الأتباع الذين سقطوا عن سدد الحكم من قبل ، فأصبحوا بين شريدٍ وطريدٍ وسجينٍ وقتيل ؟ ..

أو أنهم يعتقدون في أنفسهم القدرة على البقاء في الحكم لاعتمادهم على جيشٍ من الخبراء والمستشارين ، وربمـــا من الجنود المرتزقة ، جاؤوا من الدولة المتبوعة ، فتولّوا حراسة جيش البلاد ، ورصد كل حركةٍ ومنع كل انقلاب .. حتى لتبلغ نسبة الخبراء العسكريين إلى تعداد الجيش في بعض البلدان نسبةَ خبيرٍ حارسٍ على كل عشرةٍ مـــن الجنـــود والضباط من أبناء البلاد .. وبعد ذلك كله .. ألا يرون أن حال أكثرهم –إن لم نقل حالهم جميعاً– في حماية خـــبراء

الغرب أو خبراء الشرق ، لا تختلف في قليلٍ أو كثيرٍ عن حال (بوكاسا) في حماية خبراء فرنسا مـــن قبـــل ، وحـــال (طراقي) في حماية خبراء الاتحاد السوفييتي من قبل .. أو حال أمثالهما ، وأمثالهما كثيرون ، أقربهم إلى الأنظـــار الـــتي تريد أن تبصر حقا : (سوموزا) والشاه المخلوع ؟ ..

أو أنهم يعتقدون في أنفسهم القدرة على البقاء في الحكم لأنهم أسكتوا كلَّ صوتٍ قويّ معارض داخل الـــبلاد ، وإن سمحوا أحياناً بأصواتٍ ضعيفةٍ يبرر وجودُها وجودَهم هم ، وكمّموا الأفواه .. أفواه أبناء الـــبلاد ، ولاحقـــوا المخلصين للشعوب والبلاد ، وأطلقوا العنان لأجهزة الإعلام الموجّهة ، وأجهزة نشر الفساد المدرّبة .. ولكنّ هذا كله أو بعضه ، هل كان كافياً لحماية سواهم من السقوط عندما حان دوره في قائمة استبدال وجوهٍ بأخرى ، وأشـــكالٍ للحكم بأشكال أقدر على تنفيذ مخططات الدولة المتبوعة ؟ ..

وهمسةٌ أخرى في أذن الحكام الأتباع ، أصبحت الشعوب تدرك مغزاها ولا هؤلاء الحكام غـــافلين أو متغـــافلين عنها ، يعتقدون أن اعتمادهم على القرابات والمصاهرات كافٍ لضمان استمرار بقائهم .. فهذه أسرةٌ تتوزع مقاليد الأمور جميعاً ، وهذا رئيس يتولى أخوه فرقةً عسكريةً خاصةً تحمي الحكم ، وذلك رئيس يتولى أخوه فرقةً عـــسكريةً خاصةً تحمي الحكم ، وذلك رئيسٌ آخر يضع في أيدي أقربائه وأصهاره مقاليد السيطرة علـــى الأجهـــزة الـــسياسية والاقتصادية .. وفي آذان هؤلاء جميعاً نهمس بهدوء : هل رأيتم في درس أفغانستان القريب أن سقوط الملك ظاهر شاه إنما كان على يد قريبه (داوود) ؟ .. وهل رأيتم في درس أفريقيا الوسطى القريب أن سقوط (بوكاسا) كان على يـــد قريبه (داكو) ؟ .. فهل تعتبرون ؟ .. وهل تتساءلون كل صباح ومساء .. من سيكون (داوود) أو (داكـــو) الـــذي سيخلفكم ؟ ..

على أن كل حاكمٍ تابعٍ لدولة أجنبية يعتقد في نفسه القدرة على البقاء غالباً لأنه يظنّ نفسه هو دون سواه الحاكم الذي لا يمكن أن تتخلى عنه الدولة التي اصطنعته على عينها ، أو وضع نفسه في خدمتها ، فالمصالح متـــشابكة ، وفي نظره متكاملة ، والوعود السرّية والعلنية كبيرةٌ مغرية ، والضمانات بمختلف أشكالها موثقةٌ بعقودٍ وعهود .. وكيـــف تستغني عنه وليس في بلده –حسب اعتقاده– من هو أقدر منه على تحقيق مصالح تلك الدولة المتبوعة ؟ ..

وربما كانت هنا نواة المشكلة الحقيقية في العلاقات بين التابعين والمتبوعين ، فالحاكم التابع يظن أن الدولة الأجنبية حريصةٌ عليه هو ، وهي في الواقع حريصة على وجود حكم تابع لها في بلده ، يحقّق مصالحها ومخططاتهـــا ، ويـــضع إمكانات البلد وثرواته في خدمتها .. أو يظن نفسه قادراً على منعها من إسقاطه لو أرادت ذلك يوماً ما ، وهـــو في الواقع الذي فتح لها ولنفوذها ولخبرائها الأبواب ، ومكّنها مما قد لا تصل إليه لولاه .. وفي اللحظة التي يبدو لتلـــك الدولة المتبوعة ، أن من الأفضل لمصلحتها استبدال تابعها بسواه ، فلن تتلكّأ لحظة واحدة ، فإمّا أن تسقطه بنفسها ، أو أن تتركه يسقط بيد سواها سقط المتاع لتتعامل مع الواقع الجديد الذي يقوم من بعـــده ، بمقيـــاس مـــصالحها .. ولْيذهب الحاكم التابع الساقط إلى المشنقة تلحق به اللعنات ، أو إلى السجن يقضي فيه البقية الباقية من أيـــام عمـــره

المعدودات ، أو فلْيتسكع على أبوابها وأبواب سواها من الدول الكبرى والصغرى باحثاً عن ملجأ أو منفى .. وهو في جميع تلك الحالات منبوذٌ من أهل بلده ومنبوذٌ من أعداء بلده على السواء ..

أيها الحكام الأتباع .. الباقون حتى الآن في الحكم

دعونا من الحديث عن المبادئ والقيم .. ودعونا من الحديث عن المصلحة العليا للشعب والبلاد ، واكتفوا في هذه السطور -إن كنتم تقرؤون- أو في آخر ما وقع من أحداثٍ على مشهد مـــنكم ومـــسمع -إن كنـــتم تبـــصرون وتسمعون- اكتفوا بالنظر بمنظار مصلحتكم الشخصية وحدها ، إن كنتم ترون المصلحة الشخصية في البقـــاء علـــى سدّة الحكم بأيّ ثمن ، وعودوا إلى أنفسكم لحظات ، وتأمّلوا في واقع التبعية الرهيب ببعض التجرد والموضـــوعية .. أفلا تتساءلون إن أمعنتم النظر والتفكير : متى يحين دوركم بعدَ مَنْ سبقكم على طريق السقوط من الحكم ؟ .. أليس بقاؤكم في الحكم -إن كان لا بدّ منه- أضمنَ بتحالفكم مع الشعب من دون أعداء الشعب ؟ ..

وخذوا من (بوكاسا) و(طراقي) على الأقل مثلا :

هل كان أخلص من (بوكاسا) لفرنسا ؟ .. دخل جيشها وهو ابن 18 سنة ، وخدم في جيشها ومعارك جيشها أكثر من 25 سنة ، ووصل في جيشها إلى أعلى رتبةٍ وصلها ضابطٌ من غير الأصل الفرنسي ، وحصل على الجنـــسية الفرنسية ، وكان مثله الأعلى (بونابرت) و(ديجول) ، وصديقه الأول (جيسكار ديستان) ، وكان عرشه الإمبراطوري -وهو أثقل العروش المنصوبة إذ بلغ وزنه 2,7 طن- من صنع فرنسا وبأموال فرنسا ، وكان تاجه -وهو أثمن التيجان المحمولة بـ 5.000 قطعة من المجوهرات والأحجار الكريمة- من صنع فرنسا وبأموال فرنسا .. التي حـــصلت عليهـــا وعلى أكثر منها من ثروة اليورانيوم وسواها في أرض أفريقيا الوسطى ، وفرنسا هي التي أوصلته إلى الحكم بـــانقلاب عسكري عام 1965م ، وفرنسا هي التي كانت تموّل ميزانيته السنوية عاماً بعد عام وتسيطر على الاقتصاد في بلده .. وفرنسا بعد ذلك كله هي التي أسقطته عن العرش بانقلابٍ عسكريٍ آخر ، فأتت بآخر يحل مكانه ورفضت مجـــرد إيوائه وتركته شريداً طريداً منبوذا

فهل بين أتباع فرنسا وبريطانيا وأمريكا وسواها من دول الغرب .. من يسمع ويرى ويعتبر ؟ ..

هل كان أخلص من (طراقي) للاتحاد السوفييتي ؟ .. رضع لبن الماركسية اللينينية فكاد يكـــون أوفى لهـــا مـــن بريجينيف ، وأصبح يُلقَّب بـ (الأب الروحي) لما سمّوه بـ (الثورة) في أفغانستان الجريحة .. وتعلمـــون كـــم حـــجّ إلى موسكو في فترة حكمه القصيرة ، وكيف عقد بضعاً وعشرين اتفاقيةً ومعاهدةً ما تركت مجـــالاً مـــن المجـــالات في أفغانستان إلاّ ووضعته في يد السادة السوفييت ، وترون في (الأرض الطاهرة) أفغانـــستان الـــشهداء .. وشـــعارات السوفييت المرفوعة ، وفي وزارات حكم (تراقي) رجال السوفييت وفي فيالق جنده خبراء السوفييت ، وملء قلبه وفمه

ذكر السوفييت ومديح السوفييت ، وكيف كان هو النصير لهم مع (فيديل كاسترو) في مؤتمر دول عدم الانحيـــاز ، وكيف عرّج على عاصمتهم ليجدد آيات الولاء والتبعية قبل عودته إلى أفغانستان ، قبل سقوطه بأيام ، وترون كيف أسقطته تبعيته لموسكو فأتت موسكو -أو أيّدت على الأقل- من هو أخلص لها منه ، وأبعد في تحقيق مصالحها وتنفيذ مخططاتها مما مضى هو إليه .. ثم تركته لا يُعرَف هل هو قتيلٌ أو جريحٌ يحتضر أم سجينٌ يتذكر ما كان فيه ومـــا آل إليه ..

فهل بين أتباع ماركس ولينين وبريجينيف مَنْ يسمع ويرى ويعتبر ؟ ..

يا أيها الحكام الأتباع ! .. إن أردتم مصلحتكم الشخصية والبقاء في الحكم ، فاعلموا أنه لا يمكـــن أن تعـــيش مصلحةٌ شخصيةٌ على حساب مصلحة البلاد والشعوب ، وبضمانات أعداء البلاد والشعوب ، بل ذاك ما يـــرديكم ويهلككم قبل سواه .. ما لم تتداركوا أنفسَكم قبل فوات الأوان .. قبل أن تلحقوا بسواكم ، أما البلاد والـــشعوب فتبقى من بعدكم أيضا ..

نعم تبقى البلاد والشعوب .. وهي التي تستفيد من هذه الدروس .. سواءٌ استفاد منها الحكام الأتبـــاع للغـــرب وللشرق الظالمون لأنفسهم وشعوبهم أم لم يستفيدوا ..

وإن هذه الشعوب لترى كيف تتحكم بأوضاعها ومستقبلها القوى الأجنبيةُ المتبوعة كما تشاء ، وإنها لـــتعلم أن الذي يحكم أفريقيا الوسطى -وأفريقيا الوسطى مجرَّدُ مثالٍ نموذجي- هي فرنسا ، التي أوصلت (داكو) للحكم قبـــل عام 65م ، وأسقطته عام 65م ، وعادت به عام 79م ..

وإن هذه الشعوب لتعلم أن الذي يحكم أفغانستان -وأفغانستان مجرد مثالٍ نموذجي- هو الاتحاد السوفييتي الـــذي دفع ضباط داوود إلى الانقلاب على الملك ظاهر شاه ، ثم دفع أمين وطراقي للانقلاب على داوود ، ثم دفـــع أمـــين للانقلاب على طراقي ..

وتخجل فرنسا من الإعلان على رؤوس الأشهاد أن أحداث أفريقيا الوسطى أشبه بمسرحية (العرائس) تحرك باريس خيوطَها ، ويخجل الاتحاد السوفييتي من الإعلان على رؤوس الأشهاد أن أحداث تبدل الحكم في أفغانـــستان أشـــبه بمسرحية (العرائس) تحرك موسكو خيوطها .. أما الأتباع فلا يخجلون ولا يستحون ، فيكرر (داكو) المرة بعد المرة أن خطة الانقلاب وُضعت في باريس ، وأنه حُمل من باريس إلى أفريقيا الوسطى في طائرةٍ عسكريةٍ فرنسية ، وأن نجاح الانقلاب كان بـ (فضل) قوات فرنسا التي سارعت إلى أفريقيا الوسطى قادمةً من الجابون ..

ويعلن حفيظ الله أمين المرة بعد المرة ، أن العقيدة الماركسية تسري في دمه ، وأن من ينكر فضل السوفييت خائنٌ لبلده ، وأن ارتباطه بالسوفييت ارتباط الأخوّة لا ارتباط التعاون والصداقة فحسب ..

لا يخجل ولا يستحيي هؤلاء الأتباع ولا أمثالهم من تمجيد واشنطون وموسكو ولندن وهافانا وباريس وبكين .. على رؤوس الأشهاد ، وتعلم الشعوب أن هؤلاء الأتباع لا يحكمون .. وإنما هي التبعية التي تحكـــم ومـــن ورائهـــا واشنطون وموسكو ولندن وهافانا وباريس وبكين .. وتعلم الشعوب ويعلم العاملون المخلصون أن المعسكرين الغربي والشرقي عاجزان .. عاجزان .. عاجزان .. عن القيام بأية حركةٍ داخل بلادنا إلاّ عن طريق (الأدوات) ، الأجـــساد المتحركة ، والعقول المؤتمرة بأمرهما المنتهية بنهيهما ..

ولهذا .. فلا مخرج من دوّامة التبعية الرهيبة إلاّ بالرجال .. الرجال الذين لا يُباعون ولا يُشتَرون .. فقـــد بـــاعوا أموالهم وأنفسهم لله من قبل بالجنة

رجالٌ .. يرون خدمة بلادهم وأمتهم بإخلاص جزءاً من عقيدتهم .. جزءاً من إيمانهم بالله وبـــأن الحكـــم لله .. وإيمانهم بيوم الحساب بين يدي الله المطّلع على السرائر لا تخفى عليه خافية ولا يضيع في ميزانه مثقال ذرّة

رجالٌ لا ترهبهم المخابرات ولا القوة الغاشمة ولا الخبراء والمستشارون ولا السجون والمعتقلات .. ولا تميل بهـــم عن طريق الحق امتيازاتٌ ظالمة ولا قراباتٌ ومصاهرات .. ولا ينخدعون بظاهرٍ مـــن القـــول في مـــؤتمراتٍ كـــبيرةٍ وصغيرةٍ ، ولا بظاهرٍ من العمل في أجهزةٍ ومؤسساتٍ ضخمة العناوين والتشكيلات ، برّاقة التوصيات والقـــرارات ، زائفة التأثير إلاّ في الاتجاه الذي صُنِعَتْ من أجله

وهؤلاء هم الرجال الذين تتطلّع إليهم الأمة والبلاد ، وينتظرهم مستقبل الأمة والبلاد ، لأنهم هم المخلصون للأمة والبلاد .. وضعوا أنفسهم في طليعة الطريق ، وتحمّلوا بأنفسهم تبعات الطريق .. طريق الإبـــاء والـــصمود والعمـــل المخلص والجهاد في سبيل الله

فيا رجال الإسلام وطلائع الإسلام

كونوا أنتم المخرج من دوّامة التبعيّات الأجنبية والعبودية للطواغيت الشرقية والغربية ..

واكشفوا بمواقفكم أمام المسلمين جميعاً حقيقة التبعيات وضآلة الطواغيت ..

وأنيروا بعملكم وجهادكم السبيل لإزالة بقايا الخنوع من أعماق النفوس ، وتقويض هياكل الظلم الجاثمة فـــوق الصدور ..

وأعطوا ببذلكم وتضحياتكم النموذج الحيّ لكل من أعياه النضال بتبعاتِه .. ليصمد ، وكل من زلّت قدمه عـــن طريق المخلصين ليؤوب ، وكل من يريد النهوض بنفسه لرفع راية الإسلام المستقل المتميّز بيده ووجـــوده .. ليعمـــل ويجاهد ..

واعلموا يا رجال الإسلام وطلائع الإسلام ، أن كل طاغوتٍ زائلٌ مهما تجبّر ، وكل مخادعٍ ظالمٍ لنفـــسه وأمّتـــه مكشوفٌ أمرُه مهما تستّر ، وكل مخلصٍ عاملٍ مناضلٍ منتصرٌ مهما طال الزمن .. وأنكم وأولئك المخلصين العاملين المناضلين جميعاً واصلون بعون الله إلى إحدى الغايتين الحسنيين ، ما بقيت الشهادة أسمى الأماني ، وبقي النصر قـــدراً محتوماً بوعدٍ من الله ، إنّ الله لا يخلف وعده ..

﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [المجادلة : 21]

﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ۞ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [غافر : 51-52]